بين الحقيقة والخيال

المزارعون العارفون بالصناعات كلها!!

من مقال للكاتب الانجليزى المشهور

ويلفرد روبرتسن

عاش المستر ويلفرد روبرتسن الكاتب الانجليزى الشهير حوالى العشرين عاماً فى اقليم اللوماجندى من روديسيا ، واشتغل هناك كمزارع يعنى بالاذرة والتبغ والقطن ، كما اشتغل بالقنص وصيد الوحوش الافريقية . وفى سنة ١٩٢٩ م عاد الى انجلترا غانماً رابحا من تجارته مبلغاً كبيراً . وبدأ الاشتغال بصناعة أخرى هى الكتابة الصحفية .

وفى هذا المقال الوصفى البديع يصور لنا الكاتب حياة المزارعين فى تلك الاقاليم النائية التى لا نعرف عنها شيئاً ، وهو منقول عن مجلة من المجلات الانكليزية . ؟ المحرر

فى التقارير الرسمية للأوربيين النازلين فى روديسيا ، أن كل من يشتغل بتربية المواشى يسمونه مزارعاً ، ولو أنه ـ فى الحقيقة ـ عارف بكل شى ، وليس بالزراعة فقط !

تراه يعيش فى فضاء من الأرض ، يمتد آلافاً من الأميال ، تتخللها أميال من صفوف الأشجار ، التى تتشعب بادئة من دائرة « المقر الأبيض » الذى يقطن فيه رب الطبيعة ، ثم تنساب خلال الفضاء مكونة حدوداً طبيعية ناضرة ، تدق فى اتساقها عن كثير من الحدود الصناعية والأسوار .

فى هذا الفضاء المترامى يعيش المزارع فى هذا الاقليم ، وقد أقلته الطبيعة بجملة من المسئوليات ، لم تنقل به أى مزارع فى أى إقليم من الأقاليم الزراعية الأخرى التى وصل إليها التمدن ، فحتمت عليه أن يكون : طبيب أسنان ، وحداداً ، وضراباً ، ورجل بوليس ، وقاضياً يقضى ما بين الناس وبعضها من خصومات بالتى هى أحسن ، وقصاباً يذبح رقاب الحيوانات ـ المستأنس منها والمستوحش ـ ، وطبيباً وصفياً وجراحاً !!! وبالاختصار فان الطبيعة حتمت عليه أن يكون عارفاً بشتى الحرف والصناعات والمهن .

ولو أمكن لأحد سكان المدن أن يعرف شتى هذه الحرف والمهن والصناعات ، فلا شك أنه يجتنى منها أوفر الربح وأكثره ، على ان كلا من أولئك المزارعين فى روديسيا العارفين بشتى هذه المهن والصناعات يجتنى أيضاً أوفر الربح وأكثره ، لكنه ربح غير مادى ، بل هو

كسب روحي أو نفساني أكثر من أي شيء آخر ؛ ذلك لأن المزارع يجد في تنوع المهام ، واختلاف نوع العمل ، البهجة التي يجدها رجل الحضر في اتصاله بمتعدد المحافل والمجامع ؛ مع أن في تنقله كل ليلة بين شتى المجالس متعبة له وعناء .

***

ويوم المزارع الروديسي النازح يبدأ بظهور خيوط الفجر في الأفق الشرقي ، وهواء الصباح يحمل إلى غرف البيت المختلفة من نوافذها شذى الغابة المحيطة ، ودخان نار المطبخ الملحق بالبيت من الناحية الخلفية ، وهو في بدء دواره ؛ وهنا يدخل صبي المطبخ يحمل شاي الصباح ـ الذي لا غنى للأوربي عنه حتى في غير بلاده ـ ، فما أن يراه المزارع حتى يكشف عنه غطاءه الشبكي ليشرب السائل الساخن ، ويقفز من فراشه إلى حيث سرواله القصير وقميصه (الكاكي) فيرتديهما ، وهنا يكون ضوء النهار قد بدأ يسطع منتشراً في الوادي كله ؛ فيدق الصبي ناقوسه الذي لا يعدو حد صراخ بال يدق عليه بقطعة من الحديد الصدىء ، والحد معلق إلى حائط في الشرفة (الفيراندا) الخلفية . وليس الصوت الداوي الراعد الذي يصدر من هذا الناقوس البدائي إلا نداء للعمال الوطنيين الذين يشتغلون في المزرعة ؛ ليسرعوا ناظمين ـ من أنفسهم ـ صفوفاً تقف منتبهة في انتظار تعليمات اليوم ، ولكن ليس الصف لزاماً على كل المشتغلين في المزرعة ؛ فأولئكم الذين ينتشون على الماشية ، وأولئكم الذين لهم أعمال معروفة دائمة ، والحوذية والنقلة ، لا داعي لأن يصطفوا مع المصطفين ، بل عليهم أن يذهبوا مباشرة إلى أعمالهم . أما الشراذم التي تنتظر مقدم « السيد » ؛ فهي تشكيلة بديعة تشبه بحارة السفن التجارية ؛ وفي الفناء الأمامي يقف الرئيسان الوطنيان في بزة متناسقة أنيقة تستلزمها تقاليد الرئاسة ، ولا يعارض فيها أجرهما العالي بالنسبة للآخرين ؛ وقد تجمهرت خلفهما صفوف العمال في أبسط أردية الطبيعة ، أو في جلابيب قصيرة ، إذا رأيتها حسبتها شبكات مما يصطاد بها السمك ، أو في أردية لا تزيد على جوال ثقبت فيه عدة ثقوب للذراعين والرأس ، وفتح من أسفل ...

ثم يحضر « السيد » ويوجه الرئيسين الوطنيين ، وهذان بدورهما يوجهان الصفوف .

المزارع الطبيب

وفي بعض الأحيان يتضح من « تابور » الصباح أن أحد العمال متغيب ، وتثبت التحريات أنه مريض ؛ وهنا يكون على أحد الرئيسين أن يبحث عنه ويأتي به ليحضر أمام الطبيب ، ويخرج « السيد » ، فيخف العمال ورئيساهم سراعاً إلى أعمالهم المختلفة ومهماتهم المتعددة .

ويغيب الرئيس المكلف باحضار الغائب المريض ، ثم يعود به ملفوفاً في ملاءة قذرة ؛ حيث يطرحه على الأرض أمام « السيد » أو الطبيب على حد سواء ، فينظر المريض إليه هزيلا مبئوساً فاقد الرجاء والأمل .

ويبدأ المزارع باستجوابه بلغته الوطنية على النحو الآتى :

المزارع — حسناً يا صاح ! ماذا أصابك ؟

المريض — إننى مريض جداً يا سيدى .

المزارع — آه ... فهمت ، ولكن أين تشكو ؟ الرأس ، أم الصدر ، أم الظهر ؟

المريض — (عند ما يسمع لفظة الصدر) نعم يا سيدى .

فيكون على الطبيب أن يقوم بالفحص ثم وصف الدواء .

ولكنه فى بادىء الأمر يفشل وتشكل الأمور عليه ، ولو أن كثرة التجربة والمزاولة تكون قد علمته كثيراً ، بحيث يستطيع — بعد عدة دقائق — أن يكون فكرة عامة عن نوع المرض، وفى الأغلب الأعم أن سواد المرضى لا تكون إصابتهم إلا بالملاريا، نظراً لانتشار البعوض فى تلك الأقاليم ؛ ومن ثم يسرع المزارع المستطب إلى بيته ، باحثاً عن زجاجة (الكينين) ، ثم يعود بها حيث يعطى منها جزءاً للمريض مع الارشادات اللازمة ، كأن يقول له : « يجب أن تأخذ حبتين من (المونيه) — اسم الكينين باللغة الوطنية — الآن » .

وقليل من الوطنيين يعرفون كيف يتناولون الأدوية على الوجه الصحيح ، وخاصة (البرشام) ، فانك ترى المريض يحبو نحو كوبة الماء التى يكون أحد زملائه قادماً بها ، فيضع فيها حبتين من النمناع ، ثم يعطى أسنانه خمس (برشامات) من الكينين يجرشها جرشاً ، ويقول فى نفس لهجته المستضعفة إلى الرئيس الوطنى : « دواء السيد هو دواء جيد ... فقط هو شديد على الذوق » .

ولقد مكثت هناك عشرين عاماً طبيباً متطوعاً ، أعالج العمال الوطنيين الذين يشتغلون فى مزرعتى ، أو يعيشون فى القرى المجاورة ، أو من يجيئون إلىّ فى معسكرات الصيد وخيامه... كنت طبيباً متطوعاً أعالج كل مرض أو حادث يمكن أن يصاب به الرجل الافريقى ؛ وفى بعض الأحيان كنت أزاول مهنتى فى سأم وملل ، وفى بعض الأحيان كنت أجد فيها لذة ومتعة وفرصة أخدم بها الانسانية فى طائفة من أبنائها ، ويحضرنى الآن عديد من النماذج التى كنت أصادفها — كطبيب — فى هذه الصحارى الخضراء ، أكتفى منها بذكر الثلاثة الآتية :

جاءت إلىّ فى عيادتى بمزرعتى ذات مرة امرأة من إحدى القرى القائمة إلى جوارى ، ومعها غلام يشارف العاشرة سناً ... ويحى ! أنهل أعطيها جزءاً من دواء الرجل الأبيض تستعمله لابنها الأسود ؟ وقدمت إلى هذا الطفل ، وقد دفعته إلى الأمام ، ثم كشفت لى عن ذراعه المتقيح كله . وحيث وقف الغلام تساقطت نقط صفراء بكثرة من ذراعه على الأرض التى ألهبتها حرارة الشمس ؛ فلم يسعنى بادىء ذى بدء — وقد أحزننى حال الغلام — إلا أن أسألها : لماذا تركته حتى ساء هكذا ، ثم فكرت فى أن تعرضه علىّ ؟ وماذا سبب له هذا الجرح

المتقيح ؟ فأجابتني بما يستفاد منه : أنه في ليلة من ليالي الأسبوع الماضي انزلق من فراشه إلى حيث كانت النيران وسط الكوخ للتدفئة؛ فقلت لها حانقاً: ولماذا لم تأتي إليّ منذ حدوثها؟ وما كان أشد دهشتي عند ما سمعتها تقول لي في مزيج من صراحة وضراعة: لنا أدويتنا الخاصة وعلاجاتنا، نستخدمها أولا؛ فاذا فشلت قدمنا إلى السيد الطبيب الطبيب القلب؛ ووفق طبهم الخاص وعلاجهم فانها لم تفعل لغلامها أكثر من أن تضع كمية من الأوحال على ذراعه في مكان الجرح المتقيح.

وهذا ما كنت ألاحظه دائماً، فانهم ينتظرون على المريض حتى اللحظة الأخيرة، ثم يجيئون في طلب المساعدة والانقاذ؛ وعلى الرغم من تأكدهم أني أصرف الدواء مجاناً مع كافة الارشادات والتعليمات اللازمة لأهل القرى المجاورة، سواء أكانوا ممن يشتغلون بمزرعتي، أم ممن لا تربطني بهم صلة العمل؛ وفي إهمالهم الشائن هذا ما يجعل العلاج أصعب خمسين مرة مما إذا كانوا جاءوا إليّ مباشرة بعد الاصابة، كما أن الدواء يكلفني كثيراً، نظراً لأنه يكون متعدداً بالبداهة.

وهكذا كانوا يجيئون إلي، فأفعل من أجلهم ما أستطيع، وأبذل كل ما هو في مقدري، وأصرخ فيهم عابساً أن يكرروا الحضور في صباح اليوم التالي، وهكذا حتى يتم لهم الشفاء.

ومثلا آخر: هو أن رجلين جاءا إلي من قرية واحدة من الجوار، بأحدهما جرح حديث بجانب رأسه، وقد ربطه بخرقة من قماش وطني (هارذي) ربطاً ساذجاً، ولكنه نفع على كل حال؛ أما الآخر ففي يده جرح من قدر مكسورة؛ جاءا إلي معاً في وقت واحد، فوقفت في حيرة، ترى من أعوده أولا؟ المنطق يحتم علي البدء بذي الشج في الرأس، ولكن نظام (العيادات) يقتضي أن يكون ترتيب الكشف بالتسلسل، إلا من يطلب مقابلة خاصة مستعجلة، والأخير قد فعل هذا، ولم يفعله المصاب الواقع في الخطر؛ ولكني في النهاية عملت بما أوحى إلي المنطق، فضمدت لذي الشج جرحه وانصرف؛ ثم عرج إلي جريح يده، فاذا بالجرح - على خلاف ما يبدو - ضحل غير عميق، وسألته عن سبب الاصابة، فبعد كثير من الاعياء فهمت أنه كسر - عن غير قصد - قدر ماء لكبير في قبيلة مما أهاج صاحبها، ومما جعل صاحبنا يعتذر ويخرج من جيبه ما قيمته (شلناً) من العملة الوطنية، وقدمه إلى صاحب القدر على سبيل التعويض، فرفض الأول وطلب (شلناً) آخر فوق الأول، فأبدى صاحبنا عجزه، فاغتاظ صاحب القدر وضربه في ظاهر كفه بقطعة منها حادة، فأصيب بهذا الجرح الواسع على ضحله، والذي لم يعتده الوطنيون من قبل، فأسرع إلي يطلب البره والشفاء؛ وهكذا باع الرجل ذراعه بشلن، وهكذا المال هو المعبود الأوحد حتى بين الزنوج.

ومثلا آخر: ذلك أن رجلا جاء إلي وضرسه يؤلمه ويريد أن يخلعه؛ ولكنه جاء إلي بعد أن سرق إحدى (الزراديات) الخاصة بالدراجات، وأعطاها لأحد مواطنيه على أن يشد له بها ضرسه فتخرجه؛ وحاول المواطن ذلك ولكنه لم يفلح، وأصيبت اللثة بتقيح أدى على أثره إلى مسرعاً، لأن مرض الأسنان عند الوطنيين نادر الحدوث، والتقيح لم يعرفوه في اللثة.

أما كيف يلعب المزارع الروديسي دوره كصياد وشرطي وبناء ومهندس وحداد، فذلك ما سنحدثك عنه في العدد القادم.